(40)

تحت شرفة جولييت

ومع ذلك فالإيطاليون بعيداً عن الصورة النمطية التي كوناها عنهم أو لهم شعب محب للحياة والمتع بشكل لا يضاهى، ولذلك فهم حين يتعاملون مع أميركي مثلاً فإنهم غالباً ما يبادرونه بعبارة "أنتم الأميركان لا تعرفون شيئاً سوى العمل وأكل الهامبورجر"، هم يعتقدون بأنهم أكثر الشعوب معرفة بمعادلة الحياة الممتعة، فهم يأكلون ألذ الأطعمة ويلبسون أجمل الثياب ويحتفون بالحب بشكل جعل بلادهم تضم واحدة من أشهر قصص الحب في العالم، كما أنهم يحظون بلغة تعتبر واحدة من أجمل لغات الدنيا، إضافة لقافلة من أهم عباقرة الفن والرسم والنحت والموسيقى والشعر عبر التاريخ.

obeikandl.com

لم يكن هناك شيء اسمه اللغة الإيطالية، لقد ألف الإيطاليون لغتهم بأنفسهم حين اجتمع أدباؤهم وشعراؤهم ليختاروا من بين اللغات التي كانت منتشرة في مقاطعات إيطاليا أجمل مافيها، ليكونوا منها لغتهم القومية اللغة الإيطالية التي يتحدثون بها اليوم، ربما لهذا السبب تبدو لغتهم كتغريد الطيور أكثر منها لغة حديث، كما قالت الكاتبة الأميركية اليزابيث جيلبرت.هؤلاء الإيطاليون الذين نصورهم أحياناً بأنهم أكثر الناس نصباً واحتيالاً، هم في الحقيقة أكثرنا تفقهاً في فن الحياة، إنهم يعرفون كيف يعيشون الحياة بمتعة، ذلك أحد أكثر إنجازاتهم عبقرية، فهم يأكلون على مهل، ويتحدثون بشكل متسارع لكنهم يمدون أحاديث لا تنتهي مع بعضهم بعضاً سواء في المقهى أو المطعم أو على جانب الطريق، هم سريعو الغضب ولا يتحرجون في التلفظ بألفاظ نابية أو إبداء حركات لا تمت للذوق أو الأناقة بصلة، لكنهم يعتبرون ذلك نوعاً من الواقعية في ممارسة فن الحياة.هناك دائماً فرصة للحديث وعقد علاقات سريعة بين الإيطالي وجاره في القطار أو المقهى أو المطعم، طالما أن الطعام يحضر على مهل وقائمة الطعام تأتي دائماً متأخرة، ربما يفعل الإيطاليون ذلك متعمدين كي يتركوا الحياة تنمو على أطراف الطاولات وحواف القلوب .

وصلت إلى مدينة فيرونا الايطالية في الثالثة ظهراً، كانت أرض محطة القطارات لا تزال مبتلة من آثار مطر كان يتساقط طيلة وقت الرحلة إلى الشمال الإيطالي، فيرونا هي درة هذا الشمال وعاصمته، وهي مدينة لا تزال تسكن التاريخ وتعزف كل يوم لحن أشهر قصة حب عرفها العالم حتى اليوم وخلدها وليم شكسبير في مسرحيته الشهيرة روميو وجولييت.وضعتها منظمة اليونسكو على قائمة أغنى مواقع التراث العالمي، حيث ينتمي طراز العمارة فيها إلى القرون الوسطى ، فحيثما سرت أو التفت لا ترى عيناك إلا معماراً قديماً يعود لتلك العصور، الأسوار، الأبراج، والشرفات التي لطالما أطلت منها صبايا لعبن بقلوب الشباب ورسمن قصص غرام تناقلتها طرقات المدينة وصالوناتها ومقاهيها، ساحات فيرونا واسعة جدا، أما البيتزا فهي متعة الراغبين في وجبة سريعة من دكاكين البيتزا المنتشرة في كل مكان.

جئت إلى فيرونا وفي خاطري أمر واحد، أن أتمشى في مدينة لا تزال تعيش في القرن السادس عشر، فلطالما أحببت هذه المدن بمعمار بيوتها وقصورها وقصص أمرائها وحكايات أثريائها وأزياء نسائها وشبابها، لقد ألهبت السينما خيالنا لسنوات طويلة من كثرة ما ملأتنا بتلك الصور، لكنني حين مشيت في طرقاتها الضيقة أحسست بأن هذه المدينة قد تغلغلت سريعا إلى

داخلي وأن أهلها طيبون وودودون جداً بالنسبة لسائحة عربية قلما يلوح قومها في هذه المدينة التي لا تستقطب العرب كما تستقطب الأوروبيين والأميركيين طيلة العام.أخذتني قدماي إلى شارع بسيط من شوارع المدينة يعج بالحوانيت والمارة، ومن دون أن أتنبه وجدت اكتظاظاً أمام بوابة حديدية تتوسط بنايات الشارع الصغير، الكل يقف متأملاً، صامتاً، يلتقط صوراً أو يكتب شيئاً على الحائط، بدا حائط المنزل مغطى ولا يكاد يعرف لونه الحقيقي لكثرة الكتابات والرسومات وقصاصات الورق الملونة والصور، حين رفعت رأسي لأقرأ اللافتة التي تعلو البوابة عرفت أن البيت يخص العاشقة الأكثر شهرة في التاريخ: جولييت حبيبة روميو، وتحت شرفتها التي طالما وقفت عليها تتبادل الأحاديث معه غص المكان بالزوار والمحبين. ليس من جديد في حكاية روميو وجولييت، لكن وقفة متأملة تحيلنا إلى استنتاجات كثيرة، فقد تسلع كل شيء في زماننا حتى الحب، لقد تحول بيت جولييت إلى مزار للعاشقين حول العالم يدفعون أموالاً للدخول وكتابة تذكار وتعليق صورة أو أمنية صغيرة تحت الشرفة الشهيرة، ومن غرائب الأقدار أن يصير البيت في وسط السوق لتكتمل الملهاة.تساءلت وأنا أتأمل الكتابات عن عدد قوافل وجيوش العشاق الذين عبروا أمام هذه البوابة ووقفوا تحت

هذه الشرفة ليكتبوا ويبكوا ويقولوا ويسجلوا ويتمنوا، وتساءلت عن عمر هذه الكتابات، وعن مصير هؤلاء الذين جاءوا وكتبوا وبكوا وتمنوا؟ كم واحداً منهم نال ما تمنى وكم واحداً طوت حكايته أعاصير النسيان؟

في حي آخر وأمام بيت روميو لا شيء يدل على حكاية أو أسطورة وحدها لافتة البلدية تقول هذا بيت روميو ولافتة أخرى كتب عليها كما جاء في مسرحية "شكسبير" أين أنت يا روميو؟ يبدو أن النساء وحدهن يصنعن التاريخ ويخلدنه.

obeikandl.com

(41)

دعوا السياسة للسياسيين

أتساءل أحياناً حين ترهقني شاشة التلفزيون بما تضخه أمامي من كم هائل من صور الصراع اليومي في شوارع العالم : لماذا يتوجب عليَّ كإنسان لا حول لي ولا قوة أن أتابع كل هذا الذي يحدث في كل مكان؟

لقد أصابتني متابعة الحرب على لبنان صيف 2006، ثم أحداث غزة التي تلتها بحالة من الإعياء النفسي، فالمتابعة التي استدرجتنا لها شاشة التلفزيون لم تكن عادية بأية حال من الأحوال، لقد انتقلت غرف نومنا إلى غرف المعيشة، وفقدنا شهية الطعام والحياة الاجتماعية، فنحن في نهاية الأمر أشخاص عاطفيون نرتبط بهذا العالم إنسانياً ولنا في تلك المدن أحبة وأصحاب، ولنا

obeikandl.com

في النهاية علاقات ووشائج تذهب عميقاً إلى صهريج التاريخ لتنهل منه استيهامات لا نهاية لجذورها .

قررت بعد ربيع 2003 وسقوط بغداد بعد كذبة كبرى عشناها وسقطنا في فخ نهايتها البشع أن لا أتابع شيئاً فقد دخلت بعد أن رأيت جنود المارينز يتمشون على جسور بغداد في نوبة بكاء، إنه بكاء الشفقة على الذات بعد ان انكشف الخداع وسقطت الأقنعة، لكنني عدت – ومعي كثيرون – لمتابعة الحرب الإسرائيلية على لبنان 2006، ثم الحرب على غزة، وبعدها قلنا لن نتابع شيئاً فقد اهترأت أرواحنا من مشاهد الأشلاء والدم والخراب، حتى جاءت الثورة المصرية فعدنا نتعلق بالشاشات مجدداً وما كدنا نفيق حتى انفجر أكثر من جرح وأكثر من ثورة !

صار مشهد الاعتداء والضرب والقتل اعتيادياً، ويومياً ومتاحاً، من دون أن يكون بيدنا فعل أي شيء، كنا كما يصفنا بعض منظري الإعلام " المشاهدين السلبيين " لأننا لم نكن نستطيع فعل أي شيء آخر سوى الفرجة، لكن الفرجة كفعل تلقٍ إعلامي كان قاسياً وغير رحيم على الإطلاق، كان أشبه بممارسة العجز العلني، وعلى الجانب الآخر كان يتم تكريس حالة من اللاجدوى من كل ذلك مالم يحظ المشهد بدعم أمريكي أو أوروبي أو تحالف أممي أو ..

انتهت الثورة المصرية في 18 يوماً، كانت ثورة قياسية بكل المعايير، بدأت في 25 يناير وأعلن الرئيس تخليه عن السلطة للمجلس العسكري في مساء 11 فبراير وهلل الجميع، لكن ها هي مصر اليوم تتخبط في الفوضى وتحالفات أعداء الأمس من العسكر والإسلاميين، كمشاهد أشعر بأنه دائماً ما يتم استغلال تعاطف الناس وتمرير الصفقات من تحت الطاولات لنفاجأ بأن من صفقنا له بالأمس ما عاد جديراً بأي تصفيق .. أي اختلالات تجتاح العالم العربي إذن؟ أي ترتيبات وأي تقسيمات؟

هل يختلف ديكتاتور دمشق عن طاغية طرابلس؟ لماذا إذن حين ثار الليبيون وقف معهم العالم وتراكض ساسته يميناً ويساراً ونبشت ملفات القذافي وعائلته حتى النخاع بينما لم يتفق هذا العالم نفسه على فك شيفرة الوضع السوري المعقد؟

ما هو المختلف بين الثورتين والظلمين؟ وإذا كنا نحن المتلقين السلبيين نقيم الأمر عاطفيا فكيف يقيمه أهل الحل والعقد؟ الخوف من تهور إيراني ضد تل أبيب؟ الخوف من الشمال حيث يلغم حزب الله الجنوب اللبناني بترسانة الأسلحة؟ هل سوريا لغم الشرق الأوسط الذي لا يريده أحد أن ينفجر لأن الجميع سيتضرر منه؟

لأن الأسئلة أكبر من طاقتي على الاستيعاب قررت أن أغض الطرف عن مشهد الدم في سوريا وغيرها، فما عدت احتمل مرآه أكثر، ولا تتهموني بعدم الاهتمام فقد اهتممت حتى كدت أن أراجع طبيباً نفسياً .

obeikandl.com

(42)

محاكمة الفرعون

لست من أنصار الدخول في دائرة الانتقام، فهي دائرة مفتوحة لا تنتهي ولا تقود أصحابها إلى نتيجة، وكنت قد كتبت أضم صوتي إلى ما جاء في رسالة المناضل الإفريقي نيلسون مانديلا والتي دعا فيها الثوار العرب لإجراء جلسات مكاشفة ومصالحة وطنية تنقذهم من محرقة الانتقام والتشفي ومعاقبة كل الذين انتموا أو تعاونوا أو كانوا محسوبين على نظام مبارك، فالدولة أغلبها كانت تحت أمرة مبارك، ومن الصعب معاقبة الدولة كلها، مع ذلك فهذا لايعني إسقاط القصاص، فلنا في القصاص حياة كما قال الله تعالى .

obeikandl.com

أهالي شهداء الثورة مصرين على أن يأخذ العدل مجراه، وهم لا يقولوا حتى هذه اللحظة إنهم قد أسقطوا حقهم أو سامحوا الذين قتلوا أبناءهم، والقضاء لم يقل بعد من هو الفاعل الحقيقي، وحتى تتضح الحقيقة فإن القانون والشرع يقران بأنه في حالة القتل العمد – وقتل الثوار كان عمداً وليس خطأ – ليس هناك سوى طريقين : القصاص أو عفو ولي الأمر أو ولي الدم، فعسى أن لا يطول أمر المحاكمات وأن يتوصل القضاء المصري لنتيجة عادلة وأن يتمكن المصريون من حزم أمرهم في هذا المحك التاريخي الفاصل .

في اليوم التالي لمحاكمة الرئيس السابق مبارك ونجليه، وهي محاكمة مشهودة ويوم استثنائي بكل ما تعنيه الكلمة من معنى، اتصل بي من يسألني: هل تتابعين محاكمة الوزير حبيب العدلي؟

فأجبته : في الحقيقة لديَّ ما هو أهم كي أتابعه، أما بالنسبة للعدلي وأمثاله من الفاسدين فالأمر عندي أن هؤلاء قد استهلكوا نصف أعمار الناس وهم يسرقونهم ويقتلونهم، فهل يتوجب على الناس أن تضحي بالنصف الآخر من عمرها كي تتابع التحقيق معهم والنظر إليهم وراء القضبان كأنهم أبطال حكاية اسطورية، لقد منحوا فرصة كي يظهروا كأنهم أبطال أمام سلطة العدالة، والمصاحف تلوح بأيديهم بإخراج متقن !!

عندي أن المصريين كانوا بحاجة شديدة – نفسية وحضارية – لمشهد محاكمة مبارك ونجليه وبعض أعوانه، وكنت كتبت يوماً عن أن مصر إذ تحاكم مبارك فانما تحاكم تاريخا من الذل وعبادة الفرعون الذي حين آتاه الله ملك مصر والأنهار تجري من تحته نظر من علياء قصره وقال لهم أنا ربكم الأعلى، لقد تعاقبت عصور وعصور بعد الفراعنة لكن حاكم مصر في كل العصور احتفظ برتبة الفرعون دائماً وبامتيازاته، كما احتفظ المصريون بمخزون النصر على القهر والبؤس وبقدرة التسامح والحب العجيبة لديهم .

هذه المرة اتخذ المصريون قرارهم التاريخي الأول : محاكمة الحاكم، تقديمه للمحاكمة كأي فرد عادي من أفراد الشعب، اذن فقد قرروا أخيراً أن يقوموا بما يمكن تسميته بحالة تطهير جماعي من عبادة الفرعون، بكلمة أخرى رأى كثير من المصريين في محاكمة مبارك نهاية حقيقية لعصر الفرعون في مصر، وهذا يعني أن مصر لا تنهي حقبة لتدخل أخرى بحسابات الثورات والتغيير، لكنها تكتب جملة جديدة في تاريخ مختلف عن كل ما سبق منذ قرون، حتى وإن كان هناك من يشكك في المشهد كله جملة وتفصيلاً فيكفي ما وقع عليه نظر العالم والمصريين يوم الثالث من شهر أغسطس لعام 2011 .

(43)

شباب كوورل جداً

يوقعك شباب هذه الأيام في حيرة كبيرة، ففي الوقت الذي لا تريد أن تكون قاسياً في حكمك عليهم فإنهم لا يبذلون جهداً كبيراً للتفاعل مع أفكار المحيطين بهم، حتى تظن بأن كلا الطرفين قد كون فكرته وانتهى الأمر، لا يهتم الشباب الصغار بالطريقة التي ينظر الكبار بها إليهم، فإذا أعطيناهم الحق في أن يكونوا كما يريدون ويؤسسوا لشخصياتهم المستقلة بعيداً عن ذهنية القمع والتخويف والترهيب والسلطة الأبوية المبالغ فيها، فإننا لا نستطيع مهما كانت درجة الليبرالية التي نتمتع بها أن نتركهم يتخبطون في الحياة كما يشاؤون، لأنهم مسؤولية أولاً، ولأن ما يحدث في كل مكان أمر

obeikandl.com

مخيف بالفعل، أما نظرية " خليك كوول " التي يعتنقونها ويطبقونها في كل شيء فقد ثبت فشلها فعلاً !

أحياناً تشعر بالشفقة عليهم حين تحسهم كأطفال التوحد يهيمون في عالمهم الافتراضي مع اللابتوب الذي لا يفارقهم والبلاكبيري الذي صار ملازماً كأسمائهم، والسماعات التي يحشرونها في آذانهم 24 ساعة، فأحياناً ينامون وهي معلقة كحبل غسيل على بلكونة في بناية قديمة، لا تكاد ثلاثية اللابتوب والبلاكبيري والسماعات تفارق هؤلاء، وليس بعدها شيء مهم في الحياة، فهذا هو الأكل والشرب والأصدقاء والأهل، وما يلزم وما لايلزم، بينما يكتفي الأبوان بتوجيه انتقادات تهكمية لا أكثر يقابلها لا مبالاة تثير الأعصاب من قبل الشباب الذين لكي يثبتوا لأنفسهم وللجميع بأنهم «كوول» فإنهم لا يردون على أي انتقاد يوجه سوى بابتسامة بالكاد تلوح على أطراف شفاههم .

في المقهى هم وثلاثيتهم الشهيرة، اللابتوب موجود بين الصديقين المتلازمين على الطاولة نفسها، لا حوار، لا نقاش، لا شيء سوى لابتوب مفتوح وأصابع تتحرك بسرعة البرق على حروف اللوحة، وكوب القهوة الأميركية من الحجم الكبير جداً، كي تكتمل حالة «الكوول» بكامل

تجلياتها، ماذا يقرؤون بالضبط؟ خليط من أخبار المواقع، آخر موديلات السيارات، آخر النكات، آخر موديلات الموبايلات، وتشات مستمر مع صديقة أو صديق لا يدري عنه أحد أي شيء وخاصة الأم والأب اللذين كلما سئل أحدهما عن الولد أو البنت رد بكل ثقة : يذاكر في غرفته !!

الشباب الكول إذا بحثت عنهم في المول فهم في أماكن معروفة جداً ليست المكتبة أحدها بالتأكيد : السينما، مقهى ستاربكس، محل البنكبيري أو إحدى متاجر بيع حلويات الكب كيك للفتيات الكول جداً، أو مطاعم الوجبات السريعة للشباب الكول، والعلاقات شغالة بين الطرفين في هذه الأماكن، والأهل في خبر كان، وبين جو المنزل ومحافظته، وتعليمات السيدة الوالدة للأولاد بالمحافظة على الصلاة وللبنت بأن تلتزم أقصى درجات الأدب، يقع الشباب الكول في دوامة الصراع بين ما يريدون وبين ما يطلب منهم، لكنهم في النهاية يجيدون فن المراوغة بشكل لا يصدق ويفعلون ما يحلو لهم بعيداً عن سلطة ورقابة الأهل، وتزيدهم المسلسلات وموضة الأفلام الجديدة العربية تحديداً انسلاخاً عن واقعهم وإمعاناً في واقع الشباب الكول .

(44)

الثورة على طريقة « عليا »

الذي يحدث في فضاء الفيسبوك قارب حدود اللامعقول، صارت الأمور خارج السيطرة، وخارج التصنيفات، لايمكنك أن تشارك ولا يمكنك أن تقف مشدوها كجذع شجرة يابس في صحراء بلانهاية بلاحدود وبلا أمان، خرج الأمر من كونه تواصلاً واتصالاً وإعلاماً جديداً وثورة تكنولوجيا، صرنا في زمن ما بعد القذافي والدولة القومية وما بعد ربيع الثورات، فهل تدرون عن ماذا يتحدث شباب الوطن العربي على الفيسبوك هذه الأيام؟ إنهم يتحدثون عن عليا المهدي، الصبية التي قررت أن تضع صورتها عارية تماماً على الصفحة فسجلت بهذا النصر دخولاً جماهيرياً على صفحتها فاق المليون شخص !! والآتي أعظم .

obeikandl.com

علينا أن ننتظر موسم القطاف، والقطاف سيكون كحصيلة حاطبي الليل، شوك وحطب وحصى وشيء من ديمقراطية، والآن سيهتف أحد قائلاً لا زالت الأمور في بدايتها فلننتظر حتى تهدأ العاصفة وينتهي الشتاء ليذوب الثلج ويظهر المرج، فنقول له إن المشكلة ليست في الانتظار ولكن في الذهنية التي طفحت في الإعلام الجديد، إعلام شباب اليوم على صفحات التويتر والفيسبوك من قبل آلاف الشباب العرب الذين دخلوا إلى صفحة علياء وأبدوا رأيهم وعلقوا على فعلتها وكذلك عشرات المدوّنات التي تناولت الحدث وآلاف المدونين الذين علقوا عليها في الفيسبوك وتويتر، لكن المثير في الحكاية هو تلك التغطية المريبة في أغلب المحطات العالمية .

أحد الكتاب كتب مقالاً في القدس العربي، عبر عن فعلة علياء على النحو التالي « .... علياء، ببساطة عرضها لعريها، تحاول بطريقتها الفجة رفع أسئلة تحرج المجتمع في أكثر مناطقه حرجاً، وهي مثل الشباب الذين يوجهون صدورهم العارية للرصاص، تترك جسدها عارياً لا لتتلقى طلقات السلطة فحسب بل والمجتمع أيضاً، وهو فعل قد يبدو جنوناً للكثيرين، لكن في الجنون، أحياناً، الكثير الكثير من العقل »!! فهل يمكن لعاقل أن يتقبل هذه المقاربة وأن تتساوى فتاة تعرض صورتها عارية تماماً أمام الملايين بأولئك

الشباب الذين ذهبوا وفتحوا وتصدوا بصدور عارية لآلات القمع والقتل؟

أما علياء نفسها ولأنها تعلم بمدى الصدمة التي ستحدثها فعلتها وبوقع الصورة على الذهنية العربية لمرتادي فضاء الإنترنت، سواء كانوا متدينين أو محافظين أو ليبراليين أو حتى عبدة شيطان، فقد ردّت على كل من هاجمها وشتمها ونال منها بأقذع الألفاظ، حاكموا الموديلز الذين عملوا في كلية الفنون الجميلة حتى أوائل السبعينيات... اخلعوا ملابسكم وانظروا إلى أنفسكم في المرآة، واحرقوا أجسادكم التي تحتقرونها لتتخلصوا من عقدكم الجنسية إلى الأبد، قبل أن توجهوا لي إهاناتكم العنصرية أو تنكروا حريتي في التعبير !

فمتى كان العري طريقة لمحاكمة المجتمع والاحتجاج على الخطأ أو محاولة تصحيحه في مجتمعاتنا العربية ذات الأغلبية المسلمة؟ نسأل لأننا نعتقد بأن هناك من يحاول أن يقرأ بشكل خاطئ ليعلم جيلاً بأكمله القراءة بالمقلوب، ليقول لهم بأن التعري أمام الملأ ليس فعلاً حيوانياً بل هو طريقة أخرى للتعبير عن الرأي وهو دليل عافية وتقدم وثورية، فآليات الثورة التي نعرفها صارت موضة بالية وعلينا أن نتعرف على طرق أخرى !

نسأل لنقول لإعلامنا إن عليه أن يفيق من سباته وأحلام سباق الأغاني

وصناعة النجوم والبرامج المستنسخة والمملة والبعيدة عن احتياجات الناس، وان عليه أن ينزل إلى وسط الميدان ليرى أن التحديات التي عليه أن يواجهها – إن استطاع – لم تعد تحديات، لقد صارت طوفاناً .

obeikandl.com

(45)

المثقفون .. ما هي حقيقتهم؟

كلنا، حسب ظني، سواء كنا مثقفين أو غير مثقفين، قراء مهتمون ومعجبون بهؤلاء المفكرين الذين نتابع كتبهم ونتاجهم الفكري، أو حتى أولئك الذين لا يقرأون بالمتابعة ذاتها، ولكنهم يسمعون عن هؤلاء «المثقفين» الكبار في كل الدنيا، كلنا نعجب بالمثقفين ونصورهم على أنهم أصحاب مبادئ ومثل، وأخلاق تخترق الحجب، إنهم في اعتقادنا دائماً أصحاب الوعي العالي، والنضج الكافي الذي يؤهلهم ليتحدثوا باسمنا، ويحملوا قضايانا بكل مسؤولية وحرص وإيثار، لأنهم ببساطة أصحاب رسالة. وهؤلاء المثقفون ليسوا كتاباً فقط، إنهم شعراء وقادة رأي عبر الصحف ووسائل الإعلام،

إنهم أصحاب نظريات سياسية واجتماعية، هم رسامون وصحفيون وأدباء وسينمائيون وطيف كبير ممن يملكون رؤى أكثر اتساعاً ونضجاً من بقية الناس البسطاء لأنهم ببساطة أو بصعوبة إن صح التعبير، قد راكموا لأنفسهم ذخيرة هائلة من المعرفة والاطلاع، وصقلوا تجربتهم الإنسانية على محكات ليست سهلة واجهوا من خلالها الكثير من التحديات، فبعضهم تحمّل الغربة منفياً بسبب رأي لم يحتمله أصحاب السلطة في وطنه، وبعضهم ذاق مرارات السجن والتعذيب، وكثير منهم مر في نفق الفقر والعوز لأنه أصر على رأيه ومعتقده. هذه هي صورة المثقف في خيالنا جميعاً، لكن هناك من له رأي آخر تماماً، رأي على النقيض، فهو يصور المثقفين الكبار من أصحاب الوزن العالمي بشكل يخرجهم تماماً من دائرة القيم والأخلاقيات العالية ليضعهم في دائرة الشبهات، إنه الناقد والكاتب في صحيفة الأوبزيرفر البريطانية (بول جونسون) الذي يقدم في كتابه «المثقفون» والذي ترجمه بشكل فائق السلاسة والقوة السيط طلعت الشايب، الذي عرّى كبار الأدباء والشعراء والمفكرين عبر مواقفهم الحقيقية، وعبر سلوكهم الحياتي خارج دوائر الادعاءات المغرقة في التناقض والمتضمنة في كتبهم وأشعارهم ونظرياتهم! ويجعلنا، بول جونسون هنا، نسأل سؤال السيد المسيح عليه

السلام حين وجد أولئك الرجال من قومه متجمعين لقتل المرأة الزانية، إذ فاجأهم بسؤاله: من كان منكم بلا خطيئة فليرجمها بحجر!! فمن منا بلا خطيئة؟ ومن منا بلا تناقض؟ ومن هم المبرؤون من العيوب والنقائص في هذه الحياة؟ أهم الملائكة؟ فهل نحن ملائكة؟ أهم الأنبياء؟ فهل المثقفون والمفكرون أنبياء حقاً؟ بعضنا يتساءل هكذا، لتبرئة ساحة الأدباء والمفكرين حين تسلط عليهم الأضواء الكاشفة فتظهر سوءات أفكارهم، وتناقضهم، وبعضنا، يعتقد أن مهمة الثقافة ورسائلها الأساسية تنحصر في تشكيل الوعي العام والرأي العام والوجدان الجمعي لأفراد المجتمع، وأن هذه المهمة ليست سهلة وليست مشاعاً ممكناً لكائن من كان، وأن من يتصدى لها يجب أن يكون بحجم عظمتها، وإلا فإنه لا يعدو كونه مرتزقاً لا أكثر!! لقد سرد بول جونسون في كتابه قائمة طويلة بأسماء عالمية، أظهرهم بشكل مأساوي فعلاً، فهو قدمهم على أنهم ليسوا سوى منافقين، متناقضين قساة، بخلاء، متعجرفين، ووصل ببعضهم حد أن كانوا خونة وعملاء سريين للشرطة ضد أصدقائهم مثل كارل ماركس صاحب النظرية الماركسية وأكبر المدافعين عن الطبقة الكادحة، ومثل جان جاك روسو الذي تحدث عن آلام البشر باكياً، فإذا به لم يعترف يوماً بأبنائه العديدين غير الشرعيين مثلاً.

(46)

ماذا بقي من الإنسان ؟

الذين يتابعون الصحافة كل يوم أو حتى كل أسبوع، يعرفون أن في أغلب الصحف صفحات للأخبار الخفيفة يسميها أهل الجرايد (المنوعات)، ولها قسم خاص في كل جريدة بهذا الاسم. وقد كان لي في فترة من فترات عملي في صحيفة «البيان» فرصة رئاسة قسم الثقافة والمنوعات.. هذه الأخبار المنوعة يأتي معظمها عبر وكالات الأنباء العالمية والعربية، وهي تتدفق في كل لحظة من لحظات اليوم، وقد كانت هذه الأخبار الخفيفة اسماً على مسمى فيما مضى، فكانت طريفة وتدعو للضحك والابتسام أحياناً، أما اليوم فقد اختلف الوضع تماماً.. صارت هذه الأخبار تدفع الإنسان للاشمئزاز

والرعب أحياناً! لقد تغيَّر كل شيء حولنا، وفي كل الكرة الأرضية، انقلبت الموازين، وجرت تحت جسور الصحافة والحياة أنهار أخرى، تدعونا لتذكر بيت شعر للمرحوم ممدوح عدوان إذ يقول: لكم طوبى.. ولنا طوبى.. ولمن أتقن أن يتوازن في المشي وكان العالم مقلوباً العالم يسير على رأسه، مقلوباً، مصروعاً، فاقداً البصر والبصيرة، وللنظر في الأخبار التي كانت منوعة وخفيفة وطريفة، لننظر إليها في الصفحات ذاتها، ولنقرأ: «أربعة مزارعين في جنوب أفريقيا يضربون زميلهم الذي يعمل معهم في حديقة الحيوان، ويقدّمونه طعاماً للأسد!»..

«أم تطلق النار على طفلتها البالغة من العمر 4 سنوات في كرواتيا بعد شجار عنيف مع زوجها!».. «رجل إسباني يقتل والدته ويدفنها في حجرة نومها ويستمر في حياته الطبيعية وكأن شيئاً لم يكن!»..«رجل كمبودي يبيع ابنه وابنته لتغطية تكاليف رحلة سفر!»، ولا تتعجبوا بل أكملوا معي: «شاب يأكل ذراع صديقته بعد أن خنقها وقطعها وأخفاها في ثلاجة منزله» وأيضاً: «سيدة أمريكية تقتل أطفالها الثلاثة من أجل الاحتفاظ بصديقها الذي ضاق ذرعاً بهم!». الأخبار البشعة، وليست الخفيفة أو المنوعة أو الطريفة، من هذا النوع تملأ صحافتنا وصحافة العالم، والسؤال الذي ينفجر بعد قراءة

هذه الأخبار: ماذا حدث للإنسان؟ ماذا حدث للقيم؟ أين ذهبت إنسانية الإنسان وحسه وروحه؟ والأهم: إلى أين يتجه الإنسان الحديث، وإلى أين تمضي كل البشرة؟ ربما يقول أحدنا إن هذه حالات فردية تحدث نتيجة إصابة أصحابها بأمراض اجتماعية واضطرابات نفسية تفرز جرائم بهذه الشاكلة، وأن الجريمة أصلاً أزلية كسلوك بشري وقديمة منذ قتل ابن آدم أخيه بسبب الجشع والحسد، وهي بهذا التفسير ليست مستغربة أو جديدة، بل هي أمر عادي لا يحتاج إلى مساءلة أو استغراب.. ونقول إن كل ظاهرة تبدأ بحالة، والواقع الذي نتابعه قريباً منا، والذي نقرأ عنه بعيداً عنا، يقول بوضوح إن الإنسان يتجه نحو تنمية نوازع الشر فيه أكثر مما يتجه نحو تربية قيم الخير والجمال، وإنه إذا كانت الجريمة تعاطياً إنسانياً قديماً يدل على انحراف في السلوك أو الفطرة، فإن للجريمة أياً كان قدمها أو بشاعتها حدوداً معينة، لكن أن تصل الأمور إلى حالة يومية تقتل فيها الأم أطفالها، ويبيع الرجل أبناءه، ويقطع العاشق جسد محبوبته، ويطعم الأصدقاء صديقهم لحيوان مفترس، فإن هذا لا يعني سوى أن الإنسان في طريقه لفقد إنسانيته بعد أن فقد بشريته وآدميته إيذاناً بانتهاء عصر الإنسان! إن موجة الأزياء النسائية مثلاً، بدأت بكشف أجزاء صغيرة من جسد المرأة، يدها أو عنقها، لتصل اليوم عأرضات

الأزياء وهن يتمايلن على خشبة العروض لا يستر أجسادهن حتى ورقة توت صغيرة.. إن الأمور تبدأ صغيرة وبسيطة..

ثم تصبح صادمة حتى يعتادها الإنسان رغم كل بشاعاتها.. وللجريمة والعري والبشاعة صورتان، صورة أخلاقية يحاربها أهل القيم والمصرون على أن يقبض الإنسان على إنسانيته، وأن يستمر الجمال سيد الكون.. وصورة أخرى تجارية بحتة تحوّل العري والبشاعة والقتل والحروب إلى تجارة مربحة تدر المليارات على تجارها. ويبقى أن نسأل: ما هو المخرج لإيقاف اندفاع العربة على قضبان الهاوية؟ هل هناك مخرج أم أن هذا هو مصير البشرية في انفلات قيمها تمهيداً لنهايتها؟ هل اختفت القيم فعلاً، أم أنها تغيرت لتحل محلها قيم أخرى تناسب الزمن المقبل وتكون عنوانه الكبير.. فأي قيم هذه؟!

obeikandl.com

(47)

نهاية طالبة جميلة..

كم نكون مخطئين، وكم نكون واهمين في أحيان كثيرة، حين نظن أننا نعرف حقيقة الأشخاص الذين نتقاسم معهم الحياة، سواء في البيت أو العمل أو الفصل الدراسي في المدرسة أو الجامعة، نتوهم معرفتهم على وجه اليقين إلى الدرجة التي نعطي فيها لأنفسنا ذلك الحق الحصري والمطلق في الحكم عليهم من خلال سلوكهم الظاهري. وكم تكون صدمتنا قوية حين نكتشف الحقيقة.. أحياناً نكتشفها في الوقت المناسب بحيث لاتزال هناك بقية من عمر لإصلاح خطيئة الوهم، وأحياناً أخرى كثيرة تكون سهام القدر قد اخترقت جدران الغيب وما عاد هناك سوى الندم أو التكفير بشكل ما!

obeikandl.com

كنت قد قرأت منذ سنوات طويلة كتاباً مترجماً بعنوان: «الحب» لمؤلف أمريكي هو في الحقيقة أستاذ لمادة علم النفس في إحدى الجامعات الأمريكية، وكان يحكي في الكتاب بعضاً من أعمق تجاربه الإنسانية ذات البعدين النفسي والاجتماعي المميزين للعلاقات الاجتماعية القائمة على المصلحة والمنفعة، داخل المجتمع الرأسمالي الأمريكي المؤسس ابتداء على النظرية الفردية ضمن السياق التاريخي لتكوين هذا المجتمع منذ نشأته.. حيث يتربى الفرد منذ طفولته في المنزل، في المدرسة، من خلال الكتب والشارع، والمطعم، والسينما، ومن خلال آليات السياسة وبرامج الاقتصاد وغيرها على أنه الأساس والغاية، أما من بعده فليس مهماً أبداً، فما بعده ليس سوى الطوفان..! في وسط غائم كهذا، من الطبيعي أن تنشأ العلاقات الاجتماعية على أساس أفقي، وألا ينظر الناس فيها إلى أعماق بعضهم، إنهم يسعدون بصحبتهم، يتساوون معهم.

يستخدمونهم لمتعهم ولذاتهم الشخصية، خاصة جداً، لكنهم ببساطة قد يتخلون عنهم، أو يكتشفون أنهم رغم هذا القرب الجسدي إلا أنهم لم يقتربوا يوماً من أرواحهم وقلوبهم، لم يلمسوا دواخلهم يوماً، لم يسمعوا أنينهم، ولم ينصتوا لصرخات احتياجاتهم الحقيقية.. هذه الاحتياجات التي

تقود الكثيرين إلى حتفهم من دون أن يشعر بهم أحد، ومن دون أن يعثر أقرب المقربين إليهم على سبب وجيه لنهايتهم المؤلمة..!

في أحد فصول كتاب «الحب» يتحدث الأستاذ عن طالبته الجميلة والذكية والمليئة دائماً بالحبور والبهجة، تلك الطالبة التي فوجئ ذات صباح بأحد زملائها يفجر في وجهه خبر انتحارها ملقية نفسها من أعلى جرف في المنطقة، تاركة سيارتها الفارهة مفتوحة وداخلها رسالة وداع لوالديها..! لقد صعقه الخبر.

وتوقف كثيراً عند ذلك بالغموض الذي لفه حادث انتحارها المفاجئ، فلا أحد من عائلتها أو أصدقائها أو زملائها يعرف سبباً قد يقود فتاة في مثل ظروفها المثالية إلى الانتحار، فقد كانت رائعة كما يصفها الأستاذ، وكانت ممتازة، ولا ينقصها شيء من ثروة أو ذكاء أو جمال.. ولكنها مع ذلك انتحرت..! وهو فعل لا يمكن أن يقدم عليه أي شخص هكذا من فراغ.. لا بد أن هناك سبباً قوياً جداً.

لكن أحداً لم يعرف السبب الذي يدل على أنه لم يكن هناك قريب منها ليعرفها ويعرف ما الذي ينقصها. ولسنوات طويلة ظل ذلك الأستاذ يذكر تلك الحادثة دليلاً على «عدم حبنا في المجتمع الأمريكي لبعضنا البعض»

كما كان يقول..! من أجل ذلك أنشأ هذا الأستاذ في الجامعة، ولأول مرة، فصلاً سماه «فصل الحب»..

يدرس فيه مادة اختيارية سماها مادة «الحب» أراد من خلالها أن يعلم طلابه كيف يقتربون من بعضهم، وكيف يشعرون ببعضهم، كأن يجعلهم يجلسون متراصين على شكل حلقة متقابلين، متقاربين بحيث يسمعون بعضهم جيداً، ويحسون ببعضهم جيداً.. مع ذلك فقد لقي هذا الفصل معارضة شديدة من زملائه الأساتذة في هيئة التدريس، وسخرية من بعضهم الآخر! حتى كان ذلك اليوم الذي ألغى فيه الأستاذ «نيو» فصله مثار الجدل، وقدّم إجازة مفتوحة لمدة عام، وسافر إلى شرق آسيا ليعيش حقيقة العلاقات الإنسانية المتقاربة، والمليئة بالدفء والمعاني العميقة التي يفتقدها إنسان المجتمع الرأسمالي الصناعي اللاهث وراء الماديات..!

openkandil.com

(48)

ليس دفاعاً عن الرفض

في إحدى ثانويات البنين، دخل راهب شاب إلى أحد الفصول ليعلن للطلاب أن ناظر المدرسة يعاني ظرفاً خاصاً، وأنه مكلف بالقيام بواجباته لحين عودته، وفي غرفة أمين العهدة، جلس هذا الراهب الذي كان يمني النفس بالاستيلاء على منصب الناظر، يعد علب الشوكولاتة المتراكمة، فقد غامر بسحب مبلغ ضخم من مال المدرسة واشترى به هذه الشوكولاتة على أمل تحقيق ربح ضخم يؤهله لتقديم نفسه كرجل مبادرات يصلح بديلاً للناظر المتغيب. ولكي يتمكن من تصريف عشرين ألف علبة في زمن قياسي، فقد استخدم سلطاته وهيبته على الطلاب كي يقنعهم بأخذ هذه المهمة على

obeikandl.com

عاتقهم، لقد استخدم كل الوسائل المشروعة وغير المشروعة على اعتبار أن الغاية تبرر الوسيلة، وتكفل الطلاب تحت تهديد درجات النجاح والرسوب، ومقاطعة زملائهم، والتعرض لهم، والتشهير بسمعة قريباتهم و.. إلخ، ببيع الشوكولاتة لبيوت المنطقة ماعدا طالب واحد! ظل هذا الطالب يقول: (لا) في كل مرة يتلو فيها الراهب الأسماء المستعدة لبيع الشوكولاتة، ولهذا ظل معدل مساهمته صفراً في كل مرة يقدم فيها أمين العهدة أو المحاسب كشفاً بإنتاجية الطلاب الشهرية.. أما لماذا تمسك هذا الطالب برفضه فلا أحد يعرف! المضايقات كانت كثيرة جداً، وقاسية جداً، والطالب أمامها كان متماسكاً جداً، قال لأحد زملائه ذات يوم: بدأت الحكاية مثل لعبة، وكنت على استعداد لقبول البيع بعد عشرة أيام، لكنني وجدت نفسي أدخل تحدياً مع هذا الراهب المتبجح، الآن أنا لا أريد أن أبيع الشوكولاتة وكفى.. ليس لديَّ تفسير سوى رغبتي في رفض أمر لا أراه مقبولاً رغم كل ما أتعرض له! في الحقيقة كانت قصة الفتى جيري في الفيلم الأمريكي شكلاً رمزياً للرفض الذي يبديه البعض وسط بيئات تسير في طريق معين بعقلية القطيع خوفاً من الحرمان، فالجماعة حين تجد أحد أفرادها يغرد خارج القطيع فإنها سريعاً ما تلجأ إلى فكرة المقاطعة التي غالباً ما تعني حرماناً من شيء ما، الحرمان

من الانضمام للجماعة، الحرمان من الطعام، الحرمان من الوظيفة، الحرمان من الأمان، التعرض للمضايقات والتشويه والحرب النفسية.. إلخ وكل المحاولات الرامية للضغط على هذا الفرد المخالف للعودة إلى القطيع! ليس من مهمة الطلاب أن يبيعوا الشوكولاتة لينعم الراهب بسمعة جيدة، وليغطي بالأرباح التي سيحصل عليها سرقته لأموال المدرسة، لكن الطلاب خضعوا لمشيئته لأن كل واحد منهم يعاني خللاً ما، أو مشكلة ما.. إما مع نفسه أو مع المحيط، هناك طلاب لا يريدون الرسوب، وهناك طلاب سيئون أخلاقياً، وهناك طلاب يعانون اضطرابات نفسية، وهناك وهناك، لكن جيري لم يكن يعاني إشكالاً ما، كان طالباً عبقرياً، من عائلة محترمة جداً، لم يكن منحرفاً، ولا بليداً، ولذلك كان من الصعب إيجاد مستمسك ضده.. فكان أن أعلن الراهب الحرب الخفية ضده! هذا يحدث كل يوم لكثيرين في كل مكان.. خاصة لأولئك الذين يصرون على الرفض والتمسك بقناعاتهم. إن ذهنية القطيع لا تناسب هؤلاء الذين ربوا أنفسهم على احترام آرائهم والاعتزاز بشخصياتهم، هؤلاء ليسوا مشاغبين ولا سلبيين ولا مفتعلي مشاكل –كما حاول الراهب أن يصور جيري في المدرسة– وكما يحاول البعض في كل مكان أن يصوروا أصحاب الأفكار المستقلة، هؤلاء أشخاص يعانون جرعة

استغلال زائدة عما هو مطلوب في بيئاتهم، كما يعانون شجاعة قول كلمة لا، في الوقت الذي يراد منهم أن يقولوا نعم ليتمتعوا بأمان وهي وسط جماعة تسحب دم كرامتهم كل لحظة! إنه حين يقف مجموعة من الطلاب والناشطين ضد تجمعات الدول الصناعية ممن يطلق عليهم مناوئي العولمة، وحين يتظاهر الملايين ضد الحرب، وضد تخريب البيئة، وحين نكتب ضد ضياع الهوية والثقافة الإماراتية في مقابل تيار العولمة المكتسح، فإننا لا نشاغب ولا نكون سلبيين أبداً، بل إننا ندفع باتجاه الإيجابية في أقصى درجاتها، وكما يقول الشاعر السوري ممدوح عدوان: ولنا طوبى.. ولكم طوبى.. ولمن أتقن أن يتوازن في المشي وكان العالم مقلوباً .

obeikandl.com

(49)

هل ينتهي الحب؟

سألت إحدى السيدات صديقتها بطريقة تنم عن غيرة واضحة: ما هو سبب سعادتكما الزوجية أنت وزوجك رغم أن ابنتكما على مشارف التخرج في الجامعة؟ ثم استدركت حقيقة نبرتها، فقالت بما يشبه الاعتذار: أقصد ما الوصفة السحرية لهذه الحياة السعيدة التي تعيشانها، والتي أتمنى أن تدوم لكما طول العمر؟ فأجابتها الصديقة، التي بدت في منتهى السعادة الزوجية: إنني أعتني باحتياجات زوجي من الألف إلى الياء، أتابع أدق تفاصيل شؤونه، ولا أترك شيئاً يغيب عني أو أجعله نهباً للصدف. في الجهة الأخرى من العالم، كان الزوج قد هبطت به الطائرة في بلد عربي،

obeikandl.com

وهو يجلس الآن مع صديقه في أحد المطاعم الفاخرة، وإذا بالصديق يسأل الزوج: يا أخي لماذا فعلت ما فعلت؟ لماذا تزوجت على زوجتك المسكينة رغم حبها لك ورعايتها واهتمامها بكل شؤونك، إنها لا تستحق منك ذلك! فأجابه الزوج: لكنني لم أجرح شعورها، فهي مازالت زوجتي، ولم تعرف بهذا الزواج، وهي في كامل سعادتها، وأنا لا أظهر لها عكس ذلك! لكن لماذا تزوجت؟ وأرجوك لا تقل لي إن الشرع يبيح لك ذلك! فكانت إجابة الزوج غير المتوقعة: تزوجت كي أشعر بأنني رجل تثق به زوجته، وتحترم خياراته وقدرته على تحمّل المسؤولية.. زوجتي ترعاني كطفل، وتحاول تغييري بشتى الوسائل، إنها لا تريدني كما أنا، ولكن كما تريد هي، إنها لا تثق بقدرتي على تذكر موعد إقلاع طائرتي، وغالباً ما تعيد ترتيب حقيبتي لتطمئن على أنني قد أخذت عدة الحلاقة، أو أنني لم أنس معجون أسناني! ويتساءل كثيرون: هل هذا سبب وجيه ليتزوج رجل سعيد على زوجته التي تبذل قصارى جهدها ووقتها للاطمئنان على أمور وتفاصيل حياة زوجها؟ وهل يتزوج الرجال على زوجاتهم في الغالب لأسباب منطقية، أم أنهم يتحججون بأمور وأسباب لا يمكن قبولها؟ وهل هذا الزوج الذي تزوج على زوجته احتجاجاً على رعايتها رجل معذور أم رجل «بطران»؟

أسئلة كثيرة قد تخطر على بالنا حين نسمع أعذار الرجال في الزواج على زوجاتهم، وتبريرات الزوجات للدفاع عن مواقفهن.. فأين الحقيقة؟ ومن يكسب رهان التعاطف في نهاية الأمر؟ إن أعظم خوف الرجل هو شعوره أو إشعاره بأنه غير مفيد بما فيه الكفاية، وغير كفء لتحمل المسؤولية، ذلك يتم بملاحقة وتتبع شؤونه، وإشعاره كطفل يمكنه أن ينسى «ساندويشته» قبل الذهاب للمدرسة، أو أنه غير قادر على الخروج من أي مأزق إذا وقع فيه.. يقول ذلك الزوج لصديقه في المطعم: تصور أنني أحياناً أنسى عدة الحلاقة، فتتصل بي في آخر الدنيا لتلقي عليّ محاضرة في النسيان وعدم تحمّل المسؤولية، وبأنني لا يوثق بي، ولا أترك وحدي أرتب حقيبتي و... بينما أكون أنا قد تدبرت أمري واشتريت عدة أخرى من أقرب محل من الفندق الذي أنزل فيه.. وقبل أن أخرج من المنزل، هناك قائمة أسئلة عليّ أن أجيب عنها: هل أخذت جواز سفرك؟ هل تتذكر موعد رحلتك جيداً؟ هل أخذت معك المعطف ومظلة المطر؟ هل معك نقود كافية؟ هل أكدت حجز الفندق؟ هل أخذت جواربك الصوفية؟ هل... هل...؟ إنها تخنقني في الوقت الذي تعتقد فيه أنها ترعاني.. أنا لا أحتاج رعاية.. أنا أحتاج إلى ثقة، فأنا رجل بما فيه الكفاية..! يبدو أن الرجال قد يهجرون زوجاتهم لأسباب قد لا تخطر

على بال النساء أبداً، كما تغضب النساء من الرجال كذلك.. فقد كانت إحدى الزوجات تشتكي لصديقتها عدم اهتمام زوجها بها إذا عادت من العمل مكتئبة وسيئة المزاج بسبب مشاكل واجهتها مع مديرها مثلاً.. إنها تحتاج لأن تتحدث إليه، لأن تفضفض وتشعر بأن هناك من يسمعها ويفهمها ويدعمها ويشجعها على الحديث والتماسك، بينما الرجال لا يفعلون هذا الشيء، إنهم يصمتون، معتقدين أن النساء مثلهم إذا وقعن في مشكلة فضّلن حلها في صمت ومن دون تذمر! تفشل العلاقات الإنسانية، ويخرج الحب من أقرب نافذة في الحياة الزوجية وغير الزوجية، ليس بسبب الفقر أو الأولاد أو المواصلات أو مشاكل العمل.. تفشل العلاقات الإنسانية، ويفشل الحب تحديداً كما يقول جون جراي في كتابه «الرجال من المريخ والنساء من الزهرة»، لأن الناس يبذلون فطرياً لبعضهم البعض ما يريدونه هم لا ما يحتاجه الآخر.. ويتوقعون منهم رد فعل يشبه رد فعلهم تجاه الأشياء، مع أن الرجال كائنات مختلفة عن النساء، والنساء لا يفكرن ولا يتوقعن كما يفكر ويتوقع الرجال.. ولذلك فهم في النهاية يعاقبون بعضهم بعضاً بسبب سوء الفهم والمعرفة بمنع الحب عن بعضهم، لأنهم لكثرة ما يبذلون من دون أي نتيجة –لأنه بذل في الطريق الخطأ– يتعبون في نهاية الأمر، ومن ثم يتوقفون.. يا للخسارة!.

(50)

الحياة ليست بالدفء الذي نتصور

مضى زمن طويل لم أقرأ فيه مثل هذه الكتب، وحينما تناولت أحدها منذ أيام وجدت خطوطاً كثيرة قد استقرت تحت أسطرها، كان الكتاب قديماً جداً، وفي داخله قصاصة احتوت هذه العبارة: «.. وعندما رحل، وأمعن في الغياب والبعد، سقطت روحه في الوحشة، وصارت الذاكرة وحشاً يهاجم حنايا القلب في كل لحظة، فكتب إليها مستغيثاً: لقد اضطرني القدر وقسوة الحياة للجفاء فهل تعذرين؟ فجاء صوتها عبر الهاتف: ولقد اضطرني الجفاء للصمت فهل تحتمل؟». فيما مضى كنت أجد بعض الوقت لأقلب فيه صفحات بعض المجلات أطالع فيها ما يتعلق بمشكلات القراء، وفي هذه

الصفحات قرأت كثيراً عن شبان وشابات يكتبون عن أنين قلوبهم المعذبة يطلبون نصحاً أو حلاً أو مخرجاً، كانوا يسألون بيأس وعذاب: كيف ننسى؟ هل يتوجب علينا أن نكره لكي ننسى الغدر أو الإساءة أو الجفاء أو العذاب؟ وكان الذين يتصدون لحل المشاكل – أو يؤلفونها بأنفسهم أحياناً – ينهالون على أصحاب الرسائل بسيل من مواعظ ونصائح لا يمكن الأخذ بها! وفي زمن بعيد جداً، كنت لا أفارق عادة قراءة مجلة «العربي» الكويتية من الغلاف إلى الغلاف .

لم تكن هناك في رصانة هذه المجلة ولا في قيمتها الأدبية والفكرية، ولم تكن أماكن بيع الكتب والمجلات تحوي أقساماً تعج بمئات المجلات كحال اليوم، كانت المجلات تعد على أصابع اليد، وكانت «العربي» درة المجلات العربية، وأتذكر أنني قرأت فيها الكثير مما يزال عالقاً في الذاكرة، ومن هذا الكثير أتذكر تلك العبارة أهمية الدلالة: «إن الحال المضادة للحب ليست الكراهية أو البغض، نقيض الحب هو ألا يكون لديك إحساس تجاه من كنت تحب، عكس الحب هو أن تتجمد مشاعرك تجاه إنسان كان يملأ قلبك وسمعك وذاكرتك وأركان غرفتك.. فهل يبدو ذلك مستحيلاً؟ هل يمكن احتمال هذا القدر من القسوة؟ نعم يمكن للقلب أن يصبح كالحجارة أحياناً

أو أشد قسوة، حينما يكون الغدر أكبر من قدرة الإنسان على الاحتمال أو حتى مجرد الوصف، يتحجر القلب أحياناً كي يحتمل القسوة ويستمر في الحياة؟»

اليوم وبعد أن قرأنا أكثر مما تنفسنا وشربنا، حول الحب وحميمية الأصدقاء، وغدر الأحباب وقسوة الزمان، وحول السقوط في التعاسات التي يخلفها الرحيل ومتاهات الغياب، اليوم بعد أن امتلأنا بالمشاهد والتجارب والصور، صرنا على يقين بأن ما جاء في مجلة «العربي» هو الأقرب للواقع، وهو حل الأيام الذي لا نحتاج لمن يسقيه لنا بحبر القلم، في أبواب المجلات الأسبوعية. عكس الحب إذاً ليس أن تكره، فهذه حكاية أخرى.. عكس الحب ألا تشعر بمن كنت تحب، إذا استطعت.. من دون أن تلتفت كثيراً للوراء، أو تطرح تلك الأسئلة القاتلة حول السبب والألم والتضحية والصدمة.. إن ذلك أفضل كثيراً من الوقوع في دوامة الأسئلة، أو مراكمة الأوجاع والتسلي بالتذكارات البائسة واستحضار الصور واجترار ما كان وما مضى بلا فائدة. الحياة ليست بذلك الدفء الذي نتصور، لكنها أجمل من أن نقضيها مع الألم، فبرغم حضوره الدائم في تلافيف التفاصيل كلها، إلا أنه يبقى مرادفاً لليأس، علينا أن نقفز للضفة الأخرى في كل مرة

يحاول هذا البائس أن يكون ضيفاً على حياتنا، ذلك أن الحياة تحتاج إلى قوة هائلة للمضي في مواجهة تحدياتها، نحتاج نحن لكي نمشي طرقاتها الصعبة إلى الحكمة، فهي ضالة المؤمن بإنسانيته..

وحينما نجدها جدير بنا أن نقف في مواجهتها كما يقف في مواجهة البحر والسماء وأن نقرأ سفر الحياة بتمهل.

obeikandl.com

(51)

ثرثرة على شط الهوى

اللبنانيون يسمون بيروت عروس البحر المتوسط، والمصريون يطلقون اللقب نفسه على مصيفهم الأشهر الإسكندرية، وكل مدينة ساحلية تطل على البحر فهي عروس على ما يبدو، وعلى ذلك فللمتوسط عرائس من كل نوع وحضارة، لكنها جميعها تشترك في سمات واحدة، وقد توالت عليها ذات الحضارات والثقافات منذ أيام الإغريق والرومان والحضارة الإسلامية وعصور النهضة الأوروبية.. يظهر ذلك في طرز المعمار الشائع في هذه المدن، والآثار الكثيرة الدالة على كل حقبة ودولة وحضارة. فحينما توقفت بي السيارة على رصيف ميناء جبيل اللبنانية، وسرت في طرقات

obeikandl.com

المنطقة القديمة فيها، أخذتني رهبة التاريخ في حضرة قلعة أحيرام والأعمدة الرومانية، وطراز البناء الضارب في القدم.. ناهيك عن طبيعة الناس هناك، إنهم تجار، منفتحون، مضيافون، وقريبون للقلب بشكل عجيب، وكذلك هم سكان المدن الساحلية بشكل عام.. يبدو أن البحر يعكس اتساع فضائه وانفتاحه على روح وشخصية الساكنين على ضفافه.. وقد غادرت مدينة جبيل اللبنانية عام 2003، وعدت إليها مراراً فيما بعد لأن تلك الروح الخفية، روح المكان قد سكنتني بشكل لا يصدق..

فأجدني حين أكون في زيارة للبنان أتوجه صوبها لأجلس على مقهى صغير جداً في منطقة السوق القديم تراودني ذكرى لقائي الأول بالمدينة، وطعم أول كوب «كابتشينو» شربته في ذلك المقهى. ومثل بيروت، كذلك هي الإسكندرية، حيث جاءها أفلاطون، وبنى فيها بطليموس مكتبة الإسكندرية في عصور ما قبل الميلاد.. وتتالى عليها فيما بعد الرومان والمسلمون، والفرنسيون، كما زارها واستقر فيها اليوناني الجميل المفكر والفيلسوف والروائي «كزانتزاكي» صاحب رواية (زوربا) الشهيرة؛ وعلى شاطئها الجميل بنى الملك فاروق، آخر سلالة محمد علي باشا، قصره المنيف بحدائقه الواسعة، والذي أطلق عليه قصر المنتزه، كما بنى المماليك قبله

بقرون قلعه قايتباي الشهيرة! وقد ذكرتني الإسكندرية في تفاصيل دقيقة ببيروت حيث.. اختلاط الثقافات، التسامح، خفة الروح الشعبية وعراقة الأمكنة.. مع فارق وجدته واضحاً جداً يكمن في ميل اللبناني بشكل عام نحو الأناقة في كل تفاصيله الحياتية، وإصراره على الحياة رغم الحروب والدمار والأزمات السياسية المتتالية، بينما استسلم الناس في معظم أنحاء مصر للحالة الاقتصادية المتردية جداً، وللفساد الضارب أطنابه في كل مكان، فظهر ذلك جلياً منذ اللحظة الأولى في كل مكان..

مما يدفع للأسى فعلاً!! تتملكك خفة الروح في مصر، ويمتلئ الوقت بالضحك ومتع صغيرة حلوة خاصة حين تكون الصحبة حلوة هناك.. وقد كانت أيام مؤتمر الإصلاح العربي الرابع في الإسكندرية إطلالتي الأولى على مدينة الإسكندرية، حيث دار على شاطئها الكثير من الثرثرة والضحك والجدل السياسي والنقاش المثقل بهموم الأمة وأحوالها، وعلامة الاستفهام الكبرى التي ترتسم فوق سماواتها: إلى أين؟ وهل الإصلاح أمر ممكن، أم حلم مستحيل؟ لو يصير هذا الإصلاح واقعاً ممكناً، لو أننا ندخل في العالم العربي عصر الأنوار والنهضة الذي دخلته أوروبا نهاية القرن الثالث عشر فتألقت فنوناً وانتصاراً وسياسة وانفتاحاً وثراء ومؤسسات..

فربما تصير بيروت والإسكندرية وتونس والدار البيضاء وغيرها من المدن العربية حواضر زاهية تستعيد أمجاد بغداد وقرطبة ودمشق.. أيام الألق والزهو الحضاري العربي الإسلامي..

يوم كان الإصلاح واقعاً.. وليس ثرثرة مثقفين على الشواطئ وفي مقاهي المدن الساحلية! وما بين تجليات العصور.. وذكريات العمر والأيام ينساب صوت فيروز متغنياً بشاطئ الإسكندرية.. شط إسكندرية يا شط الهوى.. جينا إسكندرية رمانا الهوى!!

obeikandl.com

(52)

رجل بين الحب والإرهاب ..

حين تنتهي كل الأشياء التي يمكن أن تدهشك في هذه الحياة وفي هذا العالم، فثق أنه وحده الإنسان لن يتوقف عن اجتراح هذه المعجزة، معجزة جعلك تندهش وبشكل لا تتوقعه، كل ما في الإنسان مدهش، من دون أن يحمل هذا الإدهاش معنى إيجابياً أو سلبياً، فكلما التقيت شخصاً فاجأك بشيء ما، وكلما توغلت في الطرقات الخفية لشخصية ما فأجأتك تصرفاته وردات فعله ومفاجآته غير المتوقعة بشكل يجعلك تقتنع بمقولة إن الإنسان فعلاً كائن مجهول بامتياز !

في إحدى الحكايات التي تروى عن الشباب الذين كانوا منغمسين في

obeikandl.com

حياة اللهو وسهرات الليل، كان مغنياً في إحدى الفرق الليلية، إضافة لكونه شخصية هادئة جداً ومسالمة أكثر مما يجب، وكان بعيداً جداً عن اعتناق القضايا الكبرى في الحياة، الأمر الفاقع في حياته أنه قبض عليه في سني مراهقته بتهمة ممارسة طقوس غريبة قيل عنها لاحقاً إنها تخص جماعة عبدة الشيطان، إلا أنه مالبث أن ثبتت براءته، مع ذلك فقد اختفى هذا الشاب فجأة وبدون مقدمات وفي ظروف غامضة !!

بحثت عنه الشرطة طويلاً، واتهمت زوج والدته بقتله، وسجن زمناً من دون أن يظهر أي دليل مادي يؤكد التهمة أو ينفيها فاطلق سراحه، وذات يوم من أيام الانفجارات الإرهابية التي هزت المدينة تم التعرف على جثته باعتباره صاحب العملية الإرهابية التي راح ضحيتها الكثيرون ... كان أحد اعضاء تنظيم إرهابي خطير في إحدى العواصم العربية !!

تقول حكاية أخرى إن فتاة أحبت رجلاً من غير جنسيتها حباً يشبه حكايات الحب القديمة، حتى مضت في حبها إلى مراحل من الشغف والتعلق تفاجأت هي بها قبل أن يفاجأ ذلك الرجل، ولانها امرأة فإن تعاملها مع العاطفة قد فاجأه وربما دفعه للشك وأوقعه في الحيرة أو في الذهول فهو لم يتوقع أو لم يحلم يوماً من أن تحبه هذه الفتاة تحديداً، بدا عاشقاً مثالياً لأيام،

لكن طبيعة الرجل وطبيعة الشرقي إضافة لطباعه الشخصية التي لم تعتد سوى على المألوف جعله يقف فجأة لينظر خلفه ويمد بصره إلى الأمام ثم يفكر كثيراً وطويلاً، وحين سأل نفسه إلى أين تأخذه المسافات الجديدة كان قد اتخذ قراره بالانسحاب، هكذا فجأة وبدون مقدمات !!

تفاجأت وغضبت لكنها اقتنعت في نهاية الحكاية أن الرجل في العاطفة أكثر حذراً من المرأة، وأكثر تفكيراً في التفاصيل، وهو لا يقلق من شيء قدر قلقه من التغيير واختلال الواقع الذي بناه وأسسه طوال سنوات، كما أن الحب يعني المسؤولية والرجل لا يحب المسؤولية ويتجنبها ويهابها كمجهول مخيف .

فاجأها إصراره على تبسيط الأمور، لكن وبعد مراجعة لكثير من تراث العلاقات العاطفية وكتب علم النفس التي تناولت شخصية الرجل والمرأة وموقفهما من المسؤولية اقتنعت بأن الغضب لن يقودها للدرس الصحيح، وأن الإنسان – رجلاً كان أو امرأة – لن يتوقف عن ادهاشنا حتى النهاية، ما علينا سوى النظر للأمور من هذه الزاوية لنستوعب ونتعلم لا أكثر ولا أقل، من دون أدنى حاجة للضغائن والأحقاد فهذه ستزيد خسائرنا أكثر .. وسيمضي الإنسان صوب اسطوريته وغرائبيته من دون أن يكتشف أقرب المقربين إليه أسرار نفسه كي يبقى قادراً على توليد حالة دهشته الخاصة .

(53)

حكايات صغيرة ..

إنها الحكايات الصغيرة، وحدها محافظ الذاكرة.. وأدراج الزمن، وحدها التفاصيل وتاريخ المحن، وحدها تحتسي صمت الأيام، وتتركنا نتلهى بالإنصات للثرثرات الفارغة.. حكايات كثيرة قصتها لي والدتي، أو سمعتها أو عشتها.. حكاية آمنة التي أحرقت المنزل يوم اكتشفت خيانة زوجها الذي فعلت الكثير ليصير إلى ما صار إليه، يومها كنت مع الواقفين في فضاء الشارع نتابع الحدث الجلل، وكان الجميع يتحدثون عن آمنة التي جنت، لكن أحداً لم يذكر خلفان الذي خان! أتذكر تماماً كيف غامت الصور وأنا أشاهد النيران تختلط بنيران الكلام فأسقط مغشياً عليّ وسط صراخ الواقفات

obeikandl.com

وهلع جدتي! بعدها توالت الحكايات، حكايات عوشة، وفاطمة وحمدة وأم شمسة، وسالمين، وسلطان، وغيرهم كثيرون، بعضهم نسج حياته بهدوء ورحل، وبعضهم ضاع في الضياع.. حين أسترجع حكاياتهم يحضرني الكبرياء والفرح، والحزن والحكمة والمحبة والصبر.. أما حين أستجمع تفاصيل أبي خيطاً خيطاً فإنني أنشطر حزناً على كل الذين رحلوا مكابرين في صحراوات العمر حتى الرمق الأخير.. والباقون في المكان كأنهم الوشم، أو كأنهم الرمز والبشارة! ذات نهار التقيتها، واحدة من بسطاء هذا الوطن، بدت لي نحيلة في غير وهن، جميلة بلا مبالغة، كانت كل البذخ، وكانت كل الألق، حين يصير الألق مرادفاً لطعم الأرض، وشبيهاً بكل الذين تعرفهم وتحبهم. كانت تحكي وكنت أرشف كلام الحكاية شغفاً بحلاوة العينين وشارات اليدين، كانت ذاكرتها ندية كعشبة خضراء مبللة برائحة الصباح، كانت تتحدث بلهجة جدتي.. تلك اللهجة التي لا أجدها إلا في هؤلاء الناس المضمخين بأنفسهم وإنسانيتهم.. كان فيها شيء مني، من عنفوان والدتي، وسماحة جدتي، وسذاجة جارتنا الطيبة، رأيت في عتاب صوتها حكاية أبي الذي رحل مريضاً كاتماً كل الغصات من دون أن تمنحه الحياة فرصة أخيرة يكتشف بها رفاهية الراحة! أمسكت طرف الخيط في الحكاية،

فـ (عفراء) تتسربل بالرضا كما تتسربل دوماً بعباءتها، لا تقول احتياجها، ولا تقارن نفسها بأحد منذ وعت الحياة، وتزوجت وأنجبت وشاهدت غدر الرفيق، فذهبت تحتمي بذاتها وبالصمت، ذهبت بعيداً في الصبر وفي التعفف، ذهبت وحيدة، فقيرة ومطلقة تكابد تربية ابن وحيد بلا ملاذ ولا عمل، وحينما تزوجت كان الزوج عبئاً آخر ولم يأت الفرج! وعادت إلى أهلها بجرح جديد، تتلفع مجدداً بالصبر كما تتلفع جدتها بملفعها الأسود العتيق.. عادت إلى صبر البحارة الذي تناسل منه أسلافها! اليوم تواجه (عفراء) قسوة الأيام بذات الصمت والسخرية، بنفس الابتسامة والقلب الأبيض.. وحين تجلس إلى جانبي زمناً كأنها تنساني تماماً، تحتسي صمت الفضاء الذي بيني وبينها، تجبرني على احتساء صمتها، ثم تتذكر أسئلتي بشكل مفاجئ، فتلوح الدمعة في العينين الواسعتين كليل بلا نهاية.. وحين تسقط تلك الدمعة المكابرة ينفتح أفق الكلام..

تقول: أتمنى منذ زمن بعيد أن يضمني وطفلي الصغير منزل صغير، وها هو ابني يغادر طفولته ذاهباً إلى الرجولة، وعلى شفتيه سؤالي الدائم: متى يكون لنا بيت خاص؟! وها هي صغيرتي تتوه في زحام الصغار، فأراني أتلاشى أمام حيرتها حينما تسألني: ماما، لماذا لا يوجد عندنا بيت جميل مثل بيت

صديقتي؟! فلا أملك لها إجابة! سكتت، عدت أتأمل صمتها، أتملى هدوءها الجريح، قلت كما يقال في هكذا مناسبات، كلاماً وجدته فيما بعد ساذجاً وسخيفاً حول الإجراءات والبيروقراطية..

فإذا بها تقف شامخة في انهمار النور من باب الدخول، بدا النهار صاخباً يشاكس وقفتها، يتلوى كله أمامها كي ينتزعها من الصمت، قدّم لها كل إغواءاته وإغراءاته كي تقول شيئاً قبل أن ترحل، لكنها استدارت من دون كلمة، وخرجت تاركة الضوء وحزني يملآن المكان وجملة من كلمتين: (ما في فايده)!

أغنية لفيروز ..عندي بيت وأرض جميلة ... فأنا الآن يسكنني الأمان .

obeikandl.com

(54)

يوم خبأنا الموج في جيوبنا

الذين يولدون قرب الشطآن يؤمنون أكثر من غيرهم بحكمة البحر.. وبأن السماء لا لون لها، لأن لونها الحرية.. تلك هي الحكمة التي تعلمناها منذ اغتسلت أقدامنا الصغيرة بملح الموج في زمن طفولتنا القديم.. تلك الحكمة التي قرأنا كتابها كل يوم ونحن نذرع الشاطئ جيئة وذهاباً، لأنه لم تكن لنا ألعاب أخرى غير تلك التي يكون البحر فيها طرفاً ثانياً، علمنا البحر أن نقذف أنفسنا فيه بلا وجل.. علمنا أن نتحمل ملحه وهو ينهمر في أجوافنا حين نشارف على الغرق أكثر من مرة في طريقنا لتعلم العوم جيداً.. علمنا أن نصنع ألعابنا بأيدينا.. وأن نبدأ أبجدية التمرد باكراً.. ولذلك تعبت

obeikandl.com

أمهاتنا وهن يبحثن عنّا في كل مكان.. أشقيناهن بتمردنا، فحين نخرج من بيوتنا تعلق الأمهات في حي البحر تعويذاتهن اليومية في أعناق الصبية والفتيات الصغيرات بألا يقربوا البحر أبداً.. لكن هؤلاء الذين ولدوا على الضفاف صاروا أبناء البحر.. وصار البحر لعبتهم الأثيرة، كان يناديهم حتى في مناماتهم الحميمة، كان ينهمر من سماء المنامات إلى جيوبهم وقبضات أيديهم، وحين يفيقون يجدون أيديهم مالحة وجيوبهم ملأى بالأصداف.

حين أغادر حينا عبر طرقاته الكثيرة المرصوفة بسيارتي الباذخة، أمسح الحي بعيني كل مرة أعبر تلك الطرقات أبحث عن الأطفال، عن النساء، عن الضحك والثرثرة، والصراخ والعبث، واللعب والبكاء، عن الكلاب الضالة وبعض القطط، عن ذلك المعتوه الذي يظهر فجأة ويغيب كما ظهر بلا ضجيج وبلا اسم إلا ذلك اللقب الذي أطلقه عليه أهل الحي.. أفتش عن البحر الواسع الممتد في المدى البعيد المطلق واللامنتهي، وأنظر إلى يدي فأجد وكأن آثار موج لاتزال تسمع في ثنايا خطوط الكف.. وأنتبه حين أجد الحي مليئاً بالقلاع والبيوت الضخمة وفارغاً من الناس، إلى أنني لست في زمن طفولتي، بل أنا في زمن آخر تماماً.. زمن بلا ملامح!! سمعت منذ أيام بأن طفلاً اختفى بلا أثر لأن المدرسة عاقبته بالطرد بسبب مخالفة ما ارتكبها.

وبأن أماً مسكينة تشكو عبر برنامج إذاعي أنها لا تستطيع أن تعاقب ابنها خوفاً من ردة فعله، وقالت أمي حسب ما أتذكر بأن إحدى الجارات أخبرتها بأن هناك اتفاقية دولية لحقوق الطفل تجرم ضربه أو إهانته حتى لا ينمو مشوهاً نفسياً، وأن الأطفال عندنا سيفعلون كما الأطفال في أمريكا حين يتصلون بالشرطة للإبلاغ عن والديهم إذا تعرضوا للضرب أو الاعتداء عليهم من قبلهما..

وفي المدارس تقول صديقاتي المعلمات بأنهن لا يجرؤن على معاقبة الطالبات خوفاً من ردود أفعالهن.. وكثير من هذه الأخبار صارت دارجة ومتداولة أسمع من يتبادلها حتى عند طاولة دفع الحساب في الجمعيات التعاونية. وأتذكر كم ضربنا أهلنا في الصغر وكم بكينا.. ونسينا، كان الضرب هو أول الحلول وأسرعها في التعامل مع شقاواتنا الصغيرة والبريئة وغير البريئة. لم نكن نهان بالكلمات الجارحة، لكننا نضرب بسهولة.. حتى الجار كان يحق له أن يضربنا ويؤدبنا إذا تجاوزنا..

كان الجميع مسؤولين عن تربية صغار الحي.. المسؤولية التشاركية في التربية وفي الحماية.. ولم يكن هناك من يعترض أو يهرب ويختفي أو يبلغ أحداً.. فلم تكن هناك شرطة لها أرقام معروفة وموزعة على الجميع مثل

اليوم. هو الزمن بكل تجلياته.. بكل اشتراطاته.. مر على طفولتنا كريح صرصر.. وعلى أعمارنا كجيوش التتار بلا رحمة.. هو الزمن الصاهل في دواخلنا بآلاف الصور المختلفة.. هو نحن الذين كنا مختلفين لأن كل شيء كان غير ما أصبح اليوم.. الحي تغير، أسماء الأحياء تغيرت، شكل الأطفال صار غريباً، حركة الناس في فضاء الحي صارت معدومة وكأن الحي شيء قام مصادفة أو في غفلة من أهله وبأنهم في غير حاجة إليه في حقيقة الأمر.. هل أبالغ؟ إذن لماذا لا يستخدمون الحي كما كنا نستهلكه صغاراً منذ بزوغ نجمة الصباح وحتى تحية المساء؟

obeikandl.com

(55)

أصوات من الضفة الأخرى (1)

تطرح علينا أمكنة بعينها بكل تفاصيلها وشخوصها، وسياقاتها المختلفة، أسئلة حارقة وصعبة أكثر مما شكلته فينا من ذاكرة وأصعب مما تستدعيه فينا من تداعيات، الذاكرة جزء مؤكد من العلاقة العاطفية بهذه الأمكنة، في حين تشكل الأسئلة محاولة حقيقية للإنصات والمراجعة، مراجعة علاقتنا بهذه الأمكنة، ومقدار ما بقي منها في داخلنا، كم مرة ذهبت إلى أمكنة في مدينتي وشعرت بها تنكرني وأنكرها، فإما أنها ما عادت تخصني وإما أنني ارتديت قناعاً تنكرياً أفقدني ملامحي ورائحتي، وإما أن السطو الحاصل على كل شيء قد حل بها فسرقت في غفلة وقيدت في حساب مجهول يتمخطر في كل الأرض .

obeikandi.com

ذات صباح أخذتني الطرقات إلى منطقة السوق القديم المسقوف المطل على الخور من الجهة التي يقع فيها ديوان الحاكم، حيث ينفتح فضاء السوق على أزرق هادئ منساب جميل تتهادى على صفحته قوارب صغيرة تمخر مياه الخور منذ الفجر وحتى ساعات متأخرة من الليل، بعضها القليل بقي محتفظاً بشكله التقليدي ومجاديفه، بينما اختار أغلبها الالتحاق بخيار الحداثة والميكنة، ما يجعل أذنيك تصطدمان بدوي محركات الديزل وروائحها الحادة والمزعجة .

في محطة القوارب تصطف القوارب ليهبط منها أفواج القادمين من الضفة الأخرى المقابلة، ولتدخل إلى جوفها أفواج أخرى في رحلة الذهاب والإياب الأزلية التي رسمت قدر دبي وتاريخ الخور القديم والحميم جداً، بعد المحطة هذه بأمتار معدودة تصطف محال بيع الأدوات المنزلية والأواني والأقمشة، وتشمخ المباني الضخمة التي من أكثرها عراقة مبنى البنك البريطاني الذي لطالما تراءت أضواؤه لقاطني الضفة الثانية في بر ديرة، وبهذا الاسم قبل أن يتغير إلى ما صار إليه، هناك وقريباً من هذا التجمع التجاري، يقبع محل أقمشة صغير وقديم جداً مازلت أتذكر تردد والدتي وجدتي عليه وكثير من نساء العائلة والصديقات منذ عقود من الزمن، ومازال على حاله في موقعه نفسه،

والرجل ذاته القابع خلف طاولة المحاسب !

حين قادتني قدماي إلى ذلك المكان، كنت بالفعل أستمع إلى خطوات الذين مروا هنا منذ سنوات طويلة، وإلى أصواتهم العالية والخفيضة، وقد ذهبت إلى هناك لأستمع إلى صدى الحكايات، ولأعرف كم بقي منها في الذاكرة، وأية ذاكرة تلك التي مازالت تحتفظ بتفاصيلنا التي كانت، والتي ما عاد أحد يحاول حتى مجرد ذكرها بعد هذا الطوفان الذي غمر كل شيء وأعاد إنتاجنا من جديد بلا ذاكرة، وبلا ملامح، وبلا أصوات!

يلفحك هواء بحر الخور بمجرد خروجك من نفق السوق المسقوف بظلاله وشخوصه القريبة وحالته التراثية المجروحة بأثر الافتعال والترميم وبأصوات تختلط فيها عشرات اللكنات واللغات، فإذا صادف مرورك هناك في وقت الشتاء أو الربيع أو الخريف، فلا شك أن هدير أسراب النوارس ببياضها اللافت سوف ينقلك إلى عوالم الشواطئ والجزر البعيدة التي تسمع عنها أو تقرأ عنها في الكتب، وسوف يقودك خطوك يقيناً إلى حيث تتجمع هذه الطيور على الرصيف قرب مطعم يلقي لها نزلاؤه ببقايا الطعام، كما يحدث عادة في كل المطاعم التي تقع على أرصفة الموانئ وحدود الجزر .

ربما يحالفك الحظ شتاء، فتجلس إلى مطعم صغير في هذا الحيز الضيق ما

بين باب المطعم وحاجز رصيف الميناء، وستجد هناك أفواجاً من الأجانب بآلات تصوير ضخمة يلتقطون صوراً لمشهدية المكان بمتعة متناهية، فإذا أصغيت بذاكرتك وقلبك ومددت عينيك أنت ابن المدينة إلى كل هذا الفضاء المنفتح أمامك فإن متعتك ستكون خليطاً من الدهشة والفرح والحب وشيئاً من الحزن حتماً ! .

obeikandl.com

(56)

أصوات من الضفة الأخرى (2)

حين أخذتني طرقات المدينة إلى السوق القديم على الضفة الأخرى لدبي، كنت كمن يجتاز سوراً وهمياً ما بين اليوم والأمس، كنت بحاجة لأصوات البارحة، ولتفاصيل وجوه المكان الذي يكاد يختفي تحت أقدام القادمين، مشيت، تأملت، تفرست في كل التفاصيل الصغيرة والكبيرة، قبل أن أصطدم به، كان يجلس على كرسي متهالك وهو بالكاد يقوى على النهوض، رجل أخذ منه العمر ما أخذ، فما أبقى سوى جسد، بينما تكمل السجائر على ما تبقى منه، بأصابعه النحيلة كان يمسك سيجارة لا تفارق شفتيه، بينما يده الأخرى تلملم الغبار عن بقايا بضائع غير ذات قيمة يراها كنزاً من كنوز

obeikandl.com

الملك سليمان. ليس له دكان أو محل يقفل عليه أشياءه، لكنه كان يفترش الأرض، ويجلس على كرسي دوار ممزق ورث، وعلى تلك (الفرشة) كان يضع أشياء عجيبة يعرضها للبيع بكل فخر وتعال، كان واثقاً بأنه يبيع أثريات يقبل عليها السياح الأجانب – هكذا كان يقول – فإذا نظرت إلى أثرياته وجدتها ليست سوى أحجار كريمة من النوع العادي جداً، سُبح ملونة من كل نوع، قواقع وأصداف بحرية، أغطية قديمة لزجاجات مياه غازية، ورق لعب مستخدم، بطاقات هواتف مستخدمة، راديو قديم، علب فارغة، ساعات مهترئة.. أجلسني وأعطاني حجرين بلون الرمان، قال لي: رجيهما بين يديك الاثنتين وأعطيني إياهما، فعلت، أخذهما وصار يتأمل ويقرأ، قال أشياء كثيرة من الطالع والماضي..

ولم يصدق في شيء مما قاله، لكنه كان يمارس عملاً اعتاده وصدقه وربما يجد فيه عزاء! سألته كيف يحفظ أشياءه من السرقة والعبث إذا أغلق السوق، قال: أغطيهما بغطاء سرير كبير، وأتركها في حفظ الله، البلدية تسمح لي بذلك نظراً لظروفي.. يتحدث فلا يبخل عليك بشعر جزل يحفظه عن ظهر قلب، يوصيك بوالديك وبالصلاة والخلق القويم مع الناس، يقول إنه عاصر المدارس القديمة ودرس مع كبار شخصيات البلد، ويذكر لك حكاية رحلة

الباص الذي ذهب فيه تلاميذ المدرسة في أول رحلة مدرسية منذ سنوات طويلة في بداية الأربعينات، وانقلب بهم، وعدت الحادثة يومها كارثة لأن بعض الصبية فارقوا الحياة. طلبت الحجرين منه، ونقدته ثمنهما مضاعفاً، ثم شكرته مودعة، بينما كان يتمنى عليَّ أن أزوره مجدداً، فلم أعده لكنني ابتسمت له ومضيت حيث ينفتح فضاء السوق على هدير الشارع، وحيث يقف الجميع لتناول كوب حليب من بائع يفتح دكانه على رأس الشارع المتقاطع مع السوق، هناك تجد بعض السياح، وبعض رجال الشرطة وبعض المارة يقفون في انتظار الشاي أو الحليب، وغير بعيد تجلس مجموعات بانتظار قارب ينقلهما لضفة ديرة في الجهة المقابلة. تقف وأمامك الخور، قصة العلاقة الأزلية بين دبي والبحر، بين المجتمع والتجارة، بين التجار والعالم حولهم، بين الحياة وأسطورة دبي، تقف بينما تشمخ مبان عملاقة ذات سيرة خالدة في حياة مدينة دبي كمبنى غرفة تجارة وصناعة دبي، مبنى بنك دبي الوطني، مبنى اتصالات، البرجين التوأمين حيث كان يحتل نادي دبي للصحافة فيما مضى الطابق رقم (21)

قبل أن ينتقل إلى مقره الجديد في مدينة دبي للإعلام، وبالطبع ترسو البواخر الخشبية في الميناء تحمل بضائع هائلة لتنقلها إلى الموانئ القريبة..

حركة دبي المعتادة والأصيلة لا تكون إلا في هذا المكان الذي عرف سابقاً بـ (الفرضة). حين خرجت إلى فضاء الشارع واجتزت نقطة تجمع ركاب القوارب العابرين ضفتي الخور في قوارب الديزل التي تهدر محركاتها ذهاباً وإياباً، تتبعت النوارس، وحالفني الحظ في أن أجلس إلى مطعم صغير في الفضاء الضيق بين صف المباني وحاجز البحر..

كان السياح الأجانب يلتقطون صوراً بلا حصر لمشهد النوارس في حركتها البيضاء الجماعية، ولمشهد الضفة الأخرى البديع، ولحركة القوارب ذات المجاديف، ولتفاصيل كثيرة لا تحصى.. ولا توصف.. ولا تشعر بها تنساب إلى تلافيف دماغك إلا حين تعبر ذلك المكان متلمساً روحه عاشقاً كل تفاصيله.

obeikandl.com